﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ مُحاورتهم مع أبيهم، أتتِ المُفاجأةُ بردِّ بضاعتِهم إليهم، ممّا زادَهم إلحاحًا

حاورَ أولادُ يعقوبَ أباهُم في طلبِهم إرسالَ بنيامين معهم في المرّة القادمةِ اتّجهوا إلى أمتعتِهم ليفتَحوها ويُخرجوا ما بها من زادٍ حضروا به من مصرَ، فكانتِ المفاجأةُ الّتي حكاها القرآنُ في قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَٰعَهُمۡ﴾: أصلُ (متع) يدلُّ على مَنْفَعةٍ وامتدادِ مُدّةٍ في خَيْرٍ، ومنه استمتعتُ بالشّيءِ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنْفَعَةُ، والمَتاعُ من أَمْتِعَةِ البيتِ: ما يستمتعُ بهِ الإنسانُ في حَوائِجِه[2]، والمَتاعُ في الأصل: كلُّ شيءٍ يُنتفعُ به ويُتَبَلَّغُ بهِ ويُتَزَوَّدُ، ومن معاني المَتاع: السِّلْعَةُ، والأداةُ[3]، وكلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ ما فهو مَتاعٌ ومُتْعَةٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾؛ أيْ: طعامَهم، فسمّاه مَتاعًا، وقيل: وعاءَهم، وكلاهما متاعٌ، وهما متلازمان، فإنّ الطّعامَ كان في الوعاء[4]؛ أي: المعنى: أوعيتُهم الّتي وضعوا فيها الميرَةَ[5].

2) ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ أصلُ (بضع) يدلُّ على الطّائِفَةُ من الشَّيْءِ عُضْوًا أو غَيْرَهُ، والبَضْعَةُ: القِطْعَةُ، يُقال: بضَعَ الإنْسَانُ اللَّحْمَ يَبْضَعُهُ إذا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(4) الرّاغب، المُفردات: (متع).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/26.

جَعلهُ قِطَعًا، ومنه: بِضاعَةُ التّاجِرِ من مالِه: طائِفَةٌ مِنْهُ، وقيل: سُمِّيَت البِضاعَةُ بِضاعَةً؛ لأنّها قِطْعَةٌ من المالِ تُجْعَلُ في التِّجارَةِ[1]، والبِضاعَة: قطعةٌ وافرةٌ من المالِ تُقتنى للتّجارة[2] ومعنى ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويّ؛ أيْ ثمنُ المِيرَةِ الّذي دفعوه للعزيزِ؛ أي الثّمنُ الّذي دفعوه ليوسفَ في مقابلِ ما أخذوه منه من زادٍ[3].

3) ﴿رُدَّتْ﴾: أصلُ (ردّ) هو رجْعُ الشّيءِ، تَقولُ: رَدَدْتُ الشّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا[4]، وردَّ عليه الشَّيْءَ إذا لَمْ يَقبَلْهُ، واستَرَدَّ الشّيءَ وارْتَدَّه: طَلَبَ رَدَّه عليه[5]، وقيل: ردَّ يَتَعَدَّى إلى المفعولِ الثّاني بـ (إلى) عِنْد إرادةِ الإكْرام، وبـ (على) للإهانة[6]، والرّدُّ: صرفُ الشّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحوالِه عمّا هو عليه[7]، ومعنى: ﴿رُدَّتْ﴾ في الآية: أيْ: رجعتْ إليهم تفضّلًا وإكرامًا وإحسانًا من سيّدِ أرضِ مصرَ وهو يوسفُ عليه السلام[8].

4) ﴿نَبْغِى﴾: الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنسٌ منَ الفسادِ، فمنَ الأوّل: بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغيه: إذا طَلَبْتَهُ، والبُغْيَةُ: الحاجَةُ، ومنَ الثّاني: قولهم: بغى الجرحُ: إذا ترامى إلى فسادٍ، والبَغيُ: الظّلمُ[9]، والبَغْيُ: قصدُ الفسادِ، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطلِ، والبغيُ: التَّعَدّي، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الّذي هو حدُّ الشّيء بغيٌ[10]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتحرّى، تجاوَزَه أمْ لمْ يتجاوزْه، يُقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ[11].

ومعنى قوله ﴿نَبْغِى﴾: يحتملُ أنْ تكونَ منَ البُغية، والمعنى: أيّ شيءٍ نطلبُ وراءَ هذا؟! وفّى لنا الكيلَ، وردَّ علينا الثّمنَ[12]. أو أنْ تكونَ منَ البَغْيِ، والمعنى: ما افترينا فكذبْنا على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بضع).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بضع).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (رد).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(10) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغي).
(11) الرّاغب، المُفردات: (بغي).
(12) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/224.

هذا المَلِك، فيما وصفْنا لك من إحسانِه وإكرامِه[1]، أو: ما نَبغي وما ننطقُ إلّا بالصّوابِ فيما نشيرُ به عليك من تجهيزِنا مع أخينا[2].

5) ﴿وَنَمِيرُ﴾: المِيرَة: جَلْبُ القَوْمِ الطّعامَ للبَيْع، وهم يَمْتارونَ لأَنْفُسِهِمْ، ويَميرونَ غَيْرَهم مَيْرًا[3]، والمِيرَة: الطّعام يَمْتارُهُ الإنسان[4]، ومارَ عِيالَه يَميرُ مَيْرًا: إذا أتاهم بمِيرَة؛ أيْ: بطعامٍ، وامْتارَ لَهُم: جلبَ لَهُم[5]، والمِيرةُ: الطّعامُ المجلوبُ يُزادُ إلى ما عندَهم، فيُفرَّجُ عنهم، ويُوسَّعُ عليهم، بعد ما كانوا مقصورين على ما عندَهم[6].

ومعنى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: موافقٌ للمعنى اللّغويِّ؛ أيْ: ونطلبُ لأهلنا طعامًا فنَشتريه لهم[7]، ونجلبُه لهم من عندِ المَلِك[8].

6) ﴿أَهْلَنَا﴾: أهلُ الرّجلِ: زوجُهُ، والتّأهّلُ: التّزوّجُ، وأهلُ الرّجلِ: أخصُّ النّاسِ به، وأهلُ البيت: سكّانُه، وأهلُ الإسلام: مَن يَدينُ به[9]، وأهلُ الرّجلِ في الأصل: مَن يجمعُه وإيّاهم مسكنٌ واحدٌ، ثمّ تُجُوّزَ به فقيل: أهلُ الرّجلِ لمَن يجمعُه وإياهم نسبٌ أَو دينٌ، أَو ما يَجْري مَجراهُما[10]، وقيل: أَهْلُ الرَّجُلِ: عَشيرَتُه وذَوُو قُرباه[11]، والأَهْلُ في عُمُوم التّعارفِ: الأَقَاربُ منَ العَصبَة وذَوي الأَرْحَام؛ لأَنَّهُ يجمعهُمْ النّسَبُ والتّناصر، ثمَّ يُستعارُ في مَواضِعَ تدلُّ عليها القَرينَةُ[12]. والمُرادُ بـ ﴿أَهْلَنَا﴾ في الآية: زوجاتُهم وأولادُهم؛ أي: الّذين يجتمعون معهم في مسكنٍ واحدٍ.

7) ﴿وَنَحْفَظُ﴾: أصلُ الحفْظِ يدلُّ على مُراعاةِ الشّيءِ، والتّحفّظُ: قلّةُ الغَفْلَةِ، والحِفَاظ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/196.
(3) الخليل، العين: (مير).
(4) الرّاغب، المُفردات: (مير).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (مير).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مير).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/162.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(9) ابن فارس، مقاييس: (أهل).
(10) الرّاغب، المُفردات: (أهل).
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (أهل).
(12) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن، ص: 163.

المحافظةُ على الأمور[1]، وحفِظْتُ الشّيءَ حِفْظًا؛ أَيْ: حَرَسْته، والمُحافَظة: المُراقبةُ، وقيل: المُحافظةُ: الوَفاءُ بالعَقْد، والتمسُّكُ بِالوُدِّ[2]، والحفظُ: المنعُ للشّيءِ بتفقّدِه ورعايتِه، ويُستعملُ في كلّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعاية[3]، ومعنى: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾؛ أَيْ: ونحفظُ أخانا بِنيامين بعنايتِنا ورعايتِنا، فلا يصيبُه شيءٌ ممّا تخافُه، فلا تخفْ عليه[4].

8) ﴿كَيْلَ﴾: الكيلُ: المِكْيال، وهو مصدرُ كالَ الطّعامَ وهو شاذٌّ، يُقال: كالَ المُعطي واكتالَ الآخذُ، وكِيلَ الطّعامُ على ما لم يُسمَّ فاعلُه، والكيلُ والوزنُ سواءٌ في معرفةِ المقادير[5]، ومنَ المَجاز: كالَ الشّيءَ بالشّيءِ كَيْلًا: إذا قاسَه بِه[6]، والكيلُ معلومٌ وهو ما يُكال به، وكأنّه سُمّي بالمصدر في الأصل، يُقال: كلتُه أكيلُه كيلًا، وقولُه: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أيْ: مقدار حمْلِ بعيرٍ[7].

9) ﴿بَعِيرٍ﴾: البَعيرُ معروفٌ، وهو واحدُ الإبلِ، وقد يقعُ للذّكَرِ والأنثى، وخصّه بعضُهم بالجَمَل[8]، فالبَعيرُ: الجَمَل البازِلُ، وَقيلَ: الجَذَعُ، وقيل البَعيرُ أَيضًا: الحِمارُ، والمُرادُ بالبعير في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 72] الحمارُ فَكَسَرَتْ مِنْ عِزَّتِه، وذلك أَن يَعْقوبَ وإِخْوَةَ يُوسُفَ عليهم الصّلاة والسّلامُ، كانُوا بِأَرْضِ كَنْعانَ وليس هناك إِبلٌ، وإِنّما كانوا يَمْتارونَ على الحَمير؛ أَيْ: حِمْلُ حِمارٍ، وقيل: البعيرُ ما صلحَ للرّكوبِ والحمْلِ، ويُقال لكلِّ ما يحمل بالعبرانيّة: بعيرٌ[9]. ومعنى ﴿بَعِيرٍ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويِّ؛ أَيْ: يحتملُ أنْ يكون معنى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أَيْ: حِمل جمَلٍ؛ وهو قولُ الجمهور، أو: حِمل حمارٍ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/21.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كيل).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (كيل).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (كيل).
(8) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (بعر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (بعر).
(10) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/63.

10) ﴿يَسِيرٌ﴾: أصلُ (يسر) يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، واليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ[1]، واليَسَرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسارُ واليَسارَةُ والمَيْسَرةُ: الغِنى والسَّعَة، واليَسيرُ: الهَيِّن أوِ القَليلُ، يُقَال: شيءٌ يَسيرٌ؛ أَيْ: هَيِّنٌ أَو قَليل[2].

والمعنى في الآية: ذلك الحمْلُ الزّائدُ أمرٌ يسيرٌ قليلٌ يُجيبُنا إليه المَلكُ ولا يُضايقُنا فيه، أو سهلٌ لا عسرَ فيه على هذا الرّجلِ السّخيِّ الرّحيم، فهو مُتيسّرٌ لا يتعاظمُه، يسيرٌ عليه أنْ يُعطِيَه[3]، أو ذلك الّذي يُكالُ لنا دونَ أخينا شيءٌ يسيرٌ قليلٌ، فابعثْ أخانا معنا حتّى نتّسعَ ونتكثّرَ بمكيلِه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: ترغيبًا في إرسالِ أخيهم معهم، وتطْييبًا لنفْسِ أبيهم[5]: يا أبانا ماذا نُريدُ بعدَ هذا الإكرام؟! هذا ثمَنُ الطَّعامِ رُدَّ إلينا بعدَ أنْ أُوفِيَ لنا كيلُنا، فكُنْ مُطمَئِنًّا على أخينا، وأرسِلْه معَنا؛ لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظَ أخانا، ونزدادَ حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ[6]، وذلك كَيلٌ يسيرٌ عليه[7].

ردُّ بضاعتِهم إليهم، رفْضٌ لما يَطلُبون وإغراءٌ ليعقوبَ بإرسال بِنيامين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ استئنافيّةٌ[8]،

استئنافٌ يُبيّن حالَهم بعد تأنيبِ أبيهم وتذكيرِهم بتفريطِهم بِيوسفَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (يسر).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/21.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/196.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(6) البَغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/233، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.
(8) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/38.

والاستئنافُ بيانيٌّ، وكأنّ سائلًا سألَ: ماذا حدثَ بعد قول أبيهم لهم: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾، فجاء الجوابُ بأنّهم سلّموا للأمرِ ولم يجادِلوه، بل قاموا وفتَحوا متاعَهم، وفي هذا إشارةٌ إلى امتثالِهم وطاعتِهم لأمرِ أبيهم بما يدلُّ على صلاحِ حالِهم.

دلالة ﴿وَلَمَّا﴾ في قولِه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾:

﴿وَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ شرطيّةٌ ظرْفيّةٌ زمانيّةٌ؛ بمعنى: حينَ، لأنّ الجُملتَيْن بعدها فعْلُهما ماضٍ ﴿فَتَحُواْ﴾ – ﴿وَجَدُواْ﴾، ودَلالةُ الشّرط فيها إفادةُ تحقّقِ وقوعِ هذا الحدَثِ بطرفَيْه، وفي تقييدِ الجملةِ الخبريّةِ ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ بظرفِ الدّخولِ ﴿وَلَمَّا﴾ إشارةٌ إلى أنّ إيجادَهم ثمنَ الطّعامِ كان عَقِبَ فتْحِهم لمتاعِهم، وأنّهم لم يعلَموا أنّها رُدّت إليهم حتّى وصَلوا إلى أهلِهم وفتَحوا المتاعَ، فكأنّها إنّما رُدَّت حينئذٍ، لأنّه عندما يكونُ الفعلُ سابقًا والعهدُ به قريبٌ أُتي بـ (قد) وحدَها، وإلّا أُتي بها مع الواو، والقُربُ والبُعدُ في كلّ شيءٍ بحسَبِه، تقول: "جاء زيدٌ قد حجَّ" إذا كان مجيئُه عقِبَ الحجِّ، فإنْ تأخّرَ قيل: وقد حجَّ[1].

الإشارةُ إلى أنّهم لم يَكونوا يعلَمون بردِّ البضاعةِ، حتّى فتَحوا المتاعَ

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الشّرطِ ماضيًا في ﴿فَتَحُواْ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعل الشّرطِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ فعلَ فتْحِ متاعِهم الّذي حمَلوه من مصرَ قد تحقّقَ منهم، وهو الفتحُ الماديُّ الّذي يُزيلُ عنه الأربطةَ[2].

تحقّقَ منهم فتحُ أمْتِعتِهم بعْدَ حِوارِهم مع أبيهم

نُكتةُ الإسنادِ إلى واو الجماعةِ في ﴿فَتَحُواْ﴾:

عبّر القرآنُ بواوِ الجماعة ﴿فَتَحُواْ﴾؛ أيْ: إخوةُ يوسفَ،

(1) الفراهيّ، التّعقيب على تفسير سورة الفيل: 8/157.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 19/11874.

اختصارًا لكي لا يذكرَ أحدًا منهم باسْمِه، إذ لو ذَكرهم لطالَ الكلامُ، وليس من عادةِ القرآنِ عمومًا وفي سورة يوسفَ خصوصًا ذِكرُ مَن ليسوا بأنبياءَ أو رُسلٍ، وللإشارةِ إلى توافُقِ حالِهم في عدمِ مجادلةِ أبيهم بعد أنْ أقام الحُجّةَ عليهم مُذكِّرًا إيّاهم بما فعلوا بيوسفَ، وبعد أنْ شعروا بمُوافقتِه؛ إذ لمّا امتنع يعقوبُ عن إجابة طلبِهم لم يُجادلْه أحدٌ منهم، وقاموا كلُّهم إلى متاعِهم يفتحونَه ليُخرجوا ما فيه منَ الميرةِ.

تـوافُـقُ حالِـهم في عدمِ مجادلةِ أبـيـهِـم بـعـد مُحاجَجَته لهم، بـعْـدَ أنْ أقـامَ عليهمُ الحُجّةَ

دَلالةُ التّعبير بجوابِ الشّرط ﴿وَجَدُواْ﴾:

﴿وَجَدُواْ﴾ جوابُ شرْطِ ﴿وَلَمَّا﴾ وهو العاملُ فيها، وفيه إشارةٌ إلى مفاجأةٍ غريبةٍ أصابتْهُم؛ إذْ حين فتَحوا متاعَهم فَجَأَهم وجدانُ بضاعتِهم ضمْنَه، والمعنى: وحين فتحوا أوعيتَهم الّتي بداخلها الطّعامُ الّذي اشترَوْه من عزيز مصرَ، فُوجئوا بوجودِ أثمانِ هذا الطّعام، قد رُدّت إليهم معه، ولم يأخذْها عزيزُ مصرَ، بل دسّها داخلَ أوعيتِهم[1]، ولهذه المفاجأةِ أثرٌ كبيرٌ في زيادة الفرحِ بها وزيادةِ الحماس لإقناع أبيهم بإرسالِ بنيامين.

مُفاجأةٌ أفرحتْهُم وجعلَتْهُم أشَدَّ حِرصًا على إقناعِ أبيهِم بإرسالِ أخيهِم

نُكتةُ إسنادِ الفعْلِ إلى واوِ الجماعةِ في ﴿وَجَدُواْ﴾:

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعْلَ ﴿وَجَدُواْ﴾ إلى ضميره، وهو واوُ الجماعة؛ للإشارةِ إلى توافُقِ حالِهم في وجدان كلّ واحدٍ منهم بضاعتَه في متاعِه، ليكونَ من ذلك اجتماعُ كلمتِهم في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم بِنيامين معه، وهذا ما حصلَ منهم، فإنّهم نطقوا بلسانِ الجماعةِ الّتي يزدادُ فيها الإقناعُ في كلّ كلمةٍ قالوها، ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾، ﴿مَا نَبْغِى﴾، ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾، ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، وقد قصدَ يوسفُ من وضع بضاعةِ كلِّ واحدٍ منهم في متاعِه هذا الغرَضَ.

توافُقُ وجدانِهمُ البضاعةَ وحّدَ كلمتَهم لِيَنطقوا بلسانِ الجماعةِ إقناعًا لأبيهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/389.

سِرُّ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾:

فجأتُهم بردِّ عينِ بضاعتِهم، سببٌ أدخلَ السُّرورَ والفرحَ على قلوبِهم

أضافَ البيانُ القرآنيُّ البضاعةَ للضّمير (هم)؛ للإشارةِ إلى أنّ ثمنَ الطّعامِ الّذي وُضع في أمتعتِهم هو ذاتُه الثّمنُ الّذي دفعوه لا شيء آخر؛ ممّا يكون له أثرٌ في إدخال السّرورِ والفرحِ على قلوبِهم برؤية ثمنٍ قد تعِبوا في جَمعِه، وها هو قد عاد إليهم كما هو، وهذا الفرحُ من شأنِه أن يندفِعوا بسببِه أكثرَ في إقناع أبيهم بأخْذِ أخيهم معهم.

موقعُ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ ممّا قبلَها ودَلالتُه:

استئنافٌ يُبيّن تأكيدَ طلبِهم استِصْحابَ أخيهم معهم

لم يعطفِ البيانُ الإلهيُّ جملةَ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ على ما قبلها ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ بالفاء مع أنّ السّياقَ مُشعرٌ بأنّهم قالوا ذلك عَقب وجدان بضاعتِهم، وإنّما فصلَ بين الجُملتَيْن؛ لكونِ قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا لترقُّبِ السّامعِ أن يعلمَ ماذا صدرَ منهم حين فَجَأَهم وجدانُ بضاعتِهم ضمْن متاعِهم؛ لأنّه مفاجأةٌ غريبةٌ[1]، فكأنّه قيلَ: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم: ..[2]؛ أيْ: قالوا بيانًا لذلك، وتأكيدًا لطلبِهم في استِصْحاب أخيهم[3].

نُكتةُ إثباتِ ياءِ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ وحذفِها:

لمّا لم تكتملِ البُغيةُ حُذفَ منها، ولمّا اكتملتْ لم يُحذفْ

أثبتَ البيانُ الإلهيّ الياءَ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾، ولم يُثبتْها ﴿نَبۡغِۚ﴾ [الكهف: 64] في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 63 - 64]؛ لأنّ إثباتَها في سورة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.

يوسفَ جاء على الأصلِ؛ وذلك لبيانِ أنّ ذلك هو غايةُ ما يُريدونَه ويطلبونَه، فالطّعامُ الّذي أحضروه من مصرَ هو المُرادُ لذاتِه، فهم جاؤوا للامتلاءِ فأعطاهُم المِيرةَ وأرجعَ إليهم أموالَهم، فهذا أكثرُ ممّا يَبغون، فناسبَ كمالُ تمامِ الحرفِ كمالَ تمامِ الغايةِ، أمّا في سورة الكهفِ فلم يكن فُقدانُ الحوتِ هو الغاية والهدف الرّئيس، وإنّما غايتُه هي الالتقاءُ بالخَضِر، فلمّا كانت البُغيةُ لم تكتمل؛ لأنّه لم يرَ الشّخصَ الّذي يبحثُ عنه بعدُ، وإنّما وصل للمكان، ناسبَ نقصانُ تمامِ الحرفِ نُقصانَ تمامِ الغايةِ فقال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ [الكهف: 64][1].

سِرُّ إسنادِ القولِ إلى الجماعةِ في ﴿قَالُواْ﴾:

توافُقُ مَضمونِ قولِهم المُعلَّلِ والمُؤكَّدِ من توافُقِ حالِهم

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿قَالُواْ﴾ إلى واو الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾؛ للإشارةِ إلى اتّحاد رَدّةِ فعْلِهم بعد فَجأتِهم بوجدان البضاعةِ في أمتعتِهم فنطقوا بلسان الجماعةِ الّذي له أثرٌ أكبرُ في قَبول طلبِهم، بمضمونٍ واحدٍ يعلّلُ ويؤكّدُ طلبَهم الّذي اتّفقوا عليه؛ وهو إرسالُ أخيهم بنيامين، بالإضافة إلى توافُقِ ذلك مع أسلوب القصّةِ من بدايتِها بأن جعلَ هؤلاء الإخوةَ جميعًا طرفًا في القصّةِ يُعبّرُ عنهم بلسان الجماعة في قولهم وفعْلِهم.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالنّداءِ في ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾:

في النّداءِ تنبيهٌ، وتوكيدٌ لطلبِهم، واستعطافٌ لنَيلِ مُرادِهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بأسلوب النّداءِ بأداةٍ تُستخدمُ في مناداة البعيدِ رغمَ أنّ أباهم حاضرٌ معهم؛ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ﴾؛ اهتمامًا بالغَرَضِ المُخاطَبِ فيه؛ أيْ: لتنبيهِ المنادَى وهو أبوهم إلى أمرٍ مُهمٍّ يجدرُ به أن يكون على وعْيٍ به، وهو أنّهم ماذا يَطلبون منَ الإحسان والكرم أكثرَ من هذا

(1) السّنديّ، الفتوحات الرّبّانيّة في الفوائد التّفسيريّة والبيانيّة: 3/46، والسّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 6/105.

الّذي فعلَه معنا عزيزُ مصرَ؟ لقد أعطانا الطَّعامَ الّذي نريدُه، ثمَّ ردّ إلينا ثمنَه الّذي دفعناه له دون أن يُخبرنَا بذلك، أو أنّهم لا يَبغون ويعتدون في طلبِهم هذا كما فعَلوا مع يوسفَ من قبلُ، وفي النّداء توكيدٌ لطلبِهم بإرسالِ أخيهم توكيدًا يحتاجُه المقامُ؛ إذ إنّ (يا) تحملُ معنى التّأكيدِ والتّنبيهِ.

وفي النّداء إشارة أيضًا إلى أنّهم أرادوا إظهارَ التّبجيل والاحترام، وبيانَ المكانةِ العاليةِ في قلوبهم تجاهَ أبيهم، وذلك استعطافٌ لأبيهم؛ لنيلِ مُرادِهم من إقناعِه بإرسالِ أخيهم معهم. وفيه إشارة إلى مناداتِه بوصْفٍ يُشعرُ بالشّفقة والعطوفةِ، فكأنّهم قَالُوا: مِن ترحُّمِك علينا أن ترسلَ معنا أخانا حتّى تصلَ ما نرومُ به من ازدياد الكيْلِ اليسيرِ فيحصلَ لنا الرّزقُ الكثيرُ[1].

دَلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا نَبْغِي﴾:

(مـــا) بـــينَ الاستـفـهـامِ والنّفْي والطّلب والتّجاوُزِ

إذا فُسّر ﴿نَبْغِي﴾ بـ (نطلب)، وهو منَ البُغية وهي الطّلبُ، فإنّ ﴿مَا﴾ تحتملُ أحدَ وجهَيْن:

الأوّلُ: أنّها للاستفهامِ الإنكاريِّ بتنزيل المخاطَبِ منزلةَ مَن يُتطلّبُ منهم تحصيلُ بُغيةٍ فينكرون أن تكون لهم بُغيةٌ أخرى؛ أيْ: ماذا نطلبُ بعد هذا، والمعنى أنّهم لمّا رأوا أنّ يوسفَ عليه السلام ردَّ إليهم بضاعتَهم، قالوا: ما نَبغي بعدَ هذا؟، أعطانا الطّعامَ ثم ردَّ إلينا ثمنَه، فأيَّ شيءٍ نَبغيه فوق هذا الإكرام؟[2]، وفيه كذلك معنى التّعجُّبِ من كرمِ عزيزِ مصرَ، وما فعلَه معهم عزيزُ مصرَ من مُروءةٍ وسخاءٍ؛ أيْ: كأنّهم قالوا لأبيهم: كيف لا نعجبُ وندهشُ، وهذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا من حيث لا نَدري ومعها الأحمالُ الّتي اشتريْناها من عزيز مصرَ لم ينقصْ منها شيءٌ؟[3].

(1) القُونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.

الثّاني: أنّها للنّفي، ويكونُ المُرادُ أنّهم لمّا وصَفوا يوسفَ بالكرم واللّطفِ وحسنِ الضّيافة والإكرام، قالوا: ﴿مَا نَبْغِي﴾؛ أيْ: لا نُغالي ولا نُسرفُ في ما حدّثْناك به عن كرمِ هذا الرّجلِ، أوِ المُرادُ: أنّه بلغَ في الإكرام إلى غايةٍ لا نتطلّعُ بعدَها إلى شيءٍ آخرَ، يعني لا نريدُ أكثرَ من ذلك، فإنّه بعد أن بالغَ في إكرامنا أمرَ بثمنِ الميرةِ فرُدَّ إلينا.

والمعنى على الوجهَيْن واحدٌ؛ لأنّ الاستفهامَ الإنكاريَّ في معنى النّفي"[1].

وأمّا إذا فُسِّر البغيُ بمجاوزة الحدِّ؛ أيْ بالكذبِ والتّزيُّدِ في القول فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ فقط، والمعنى: لا نَتعدّى على أخينا[2]، ولا نَبغي في القول ولا نتزيّدُ فيما وصفْنا لك من إحسان الملِك إلينا وكرمِه الموجبِ لما ذُكر؛ أيْ: ما نكذبُ[3]، والجملةُ المستأنَفةُ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ لبيان ما ادّعَوْا من عدمِ البَغي[4]؛ أيْ جاءت "بيانًا لصدْقِهم وانتفاءِ التزيُّدِ عن قيلِهم"[5]؛ أيْ كان ردُّ البضاعة دليلًا على صدْقِنا فيما قُلناه من أنّه أكرمَنا.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ في ﴿نَبْغِي﴾:

أفادَ صَوغُ ﴿نَبْغِي﴾ بصيغةِ المضارعِ المَنفيِّ أنّ طلبَ إرسالِ أخيهم معهم غيرُ مُتكرِّرٍ منهم، فهم لم يَسبقْ أنْ طلبوا إرسالَه معهم، إذا كان المُرادُ من ﴿نَبْغِي﴾ الطّلبَ، وأمّا إذا كان المُرادُ التّجاوُزَ أوِ التّعدّي والكذب فإنّ التّعبيرَ بالمضارع يفيدُ أنّ بَغْيَهم لن يتكرّرَ منهم فقد بغَوا على يوسفَ سابقًا وتابوا إلى الله، ولن يَعودوا لمثلِ ذلك مع أخيهم بِنيامين، وفي هذا طمأنةٌ لنفسِ أبيهم؛ إقناعًا له بإرسالِ أخيهم معهم.

بـعْـدَ توبتِهم من بَغْيِهم على يـوسـفَ، نـفَـوا أنْ يتكـرّرَ مثلُ ذلـك منهـم مع أخيهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) ابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/260.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/291.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383.

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ ﴿نَبْغِي﴾ إلى الجمْعِ:

نـفـيُ الـبَـغـيِ عنهم جميعًا، توكيدٌ وطَمأنةٌ لقلْبِ أبيهم

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعْلَ ﴿نَبْغِي﴾ إلى ضمير الجمْعِ في قوله تعالى: ﴿مَا نَبْغِي﴾؛ للإشارةِ إلى توكيدِ نفْيِ البَغي عن أنفسِهم جميعًا بلا استثناءٍ، سواءٌ أكان معنى (نَبغي): نطلبُ، أو: نتجاوزُ ونَعتدي، وذلك زيادةٌ في طمْأنةِ قلبِ أبيهم.

موقعُ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ ممّا قبلَها، ودَلالتُه:

اتّـخـذوا من ردِّ بـضـاعـتِـهـم، دليلًا على أنّهم غيرُ باغين فيما يطلُبون

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ عمّا قبْلَها؛ لأحدِ أمرَيْن:

الأوّلُ: أنّها جاءت مبيِّنةً لجملةِ ﴿مَا نَبْغِي﴾ على الاحتمالَيْن، سواءٌ أكان معنى ﴿مَا﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، أم للنّفي، وسواءٌ أكان معنى ﴿نَبْغِي﴾: نطلبُ، أم: نتجاوزُ ونَعتدي[1]؛ أيْ: جاءت إمّا موضِّحةً لما دلَّ عليه الإنكارُ من بلوغ اللُّطفِ غايتَه، كأنّهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتُنا ردَّها إلينا تفضّلًا من حيث لا ندري بعدما منّ علينا منَ المِنَنِ العظامِ، هل من مزيدٍ على هذا فنطلبَه، ولم يريدوا به الاكتفاءَ بذلك مُطلقًا، أوِ التّقاعدَ عن طلب نظائرِه بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمرِه والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ[2]، وإمّا جاءت بيانًا لصِدْقِهم، وانتفاءِ التّزيُّدِ عن قيلِهم وما وصفْنا لك من إحسان الملِك[3]، وكونِهم مصيبين في رأيهم[4]، أو بيانًا لعدم تعَدّيهم وإرادةِ السّوء بأخيهم[5].

الثّاني: أنّها جاءت مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ فإنّهم لمّا فتحوا أوعيتَهم ورأوا بضاعتَهم قد رُدّت إليهم قالوا: ما نَبغي، فكأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/47.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/104.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.

أباهُم قال لهم: ما الخبرُ؟ فقالوا بيانًا لذلك وتأكيدًا لطلبِهم في استصحابِ أخيهم[1].

غرَضُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾:

في ثُبوتِ مُلكِهم للبضاعةِ المردودة بيانٌ لزيادةِ فضلِ يوسفَ عليهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾؛ أيْ لم يقولوا: (وجدنا بضاعتنا في أمتعتنا)؛ لما تحملُه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثَّباتِ والاستمرارِ؛ أيْ إنَّ مُلكَها ثابتٌ لنا، فقد رُدَّت إلينا من حيث لا نشعرُ، وقد أوفى لنا الكيلَ، وأحسنَ إلينا، وردَّ لنا الثَّمنَ، وفي هذا بيانٌ لزيادة فضْلِ يوسفَ عليهم بما يكون داعيًا لموافقةِ أبيهم على أن يُوفوا له بما طلبَ من إرسال أخيهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

في الإشارةِ إلى البِضاعةِ القريبةِ لفتُ انتباهِ أبيهم، أو تحقيقُ ردِّ بضاعتِهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ ليُشيرَ بها إلى شيءٍ مُعيّنٍ قريبٍ، وهو بضائعُهم الّتي يعرفُها يعقوبُ، رغمَ أنّ يعقوبَ معهم ويرى البضاعةَ دون إشارةٍ إليها؛ لأمرَيْن:

الأوّلُ: أنّهم لم يَثقوا بمعرفةِ أبيهم لها، فعرّفوها بإشارتِهم إليها؛ لفتًا للانتباه إليها وزيادة الاهتمام بها، وهذا عند مَن عدّ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ اسْمَ إشارة.

الثّاني: التّقريبُ للرّدّ والتّحقيقِ له، كقول القائلِ: هذه الشّمسُ قد طلعتْ، فتقرَّب بـ (هذه) طلوعُ الشّمس وتحقُّقه، ولا يُعرّف بها عينَ الشّمس[2]، وهذا عند مَن عدّ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ للتّقريب. إذن: يحتملُ أن يكون قولُهم تعريفًا، ويحتملُ أن يكون ترغيبًا، وهو أظهرُ الاحتمالَيْن[3].

سِرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾:

إضافةُ (بضاعة) إلى أنفسِهم في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾؛ لأمرَيْن:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/154.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/168.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/58.

الأوّلُ: للدّلالة على أنّها عينُ بضاعتِهم الّتي دفَعوها ثمنًا للطّعام الّذي حصَلوا عليه، وإشارة بذلك إلى تملّكِهم لهذه البضاعةِ؛ إذ لم تكن موضوعةً في بعض أمتعتِهم دون بعض، وإنّما كانت موجودةً في جميع أمتعتِهم بما يدلُّ على قصْدِ يوسفَ تمليكَهم إيّاها بعد أنْ أخذَها منهم زيادةً في إكرامهم، وضمانًا منه لعودتهم بأخيهم.

ردُّ عينِ بضاعتِهم، دافعٌ أكبرُ لإقناعِ أبيهم بإرسالِ أخيهم

الثّاني: أنّ في عودةِ عينِ بضاعتِهم أكبرَ شاهدٍ على صدْقِهم أمامَ أبيهم الّذي ذاق منهم مرارةَ خداعِهم وتفريطِهم بيوسفَ عليه السلام من قبلُ.

موقعُ قولِه: ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ممّا قبلَه ودَلالتُه:

يحتملُ إعرابُ جملةِ ﴿رُدَّتْ﴾ أن تكونَ حالًا منَ البضاعةِ والعامل معنى الإشارةِ[1] بإضمار (قد) معه؛ لأنّ (قد) تقرّبُ الماضي منَ الحال[2]، والتّقديرُ: هذه بضاعتُنا مردودةً إلينا.

في الخبريّةِ والحاليّةِ، تأكيدٌ على ردِّ البِضاعةِ إليهم

ويحتمل أنْ تكون خبرًا مُستأنفًا، والمعنى: هذه بضاعتُنا، هي رُدّت إلينا[3]، أو أنْ تكون خبرًا لاسْم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ بأن يكونَ إعرابُ ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾ بدلًا من ﴿هَٰذِهِۦ﴾[4].

ومَن جعلَ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ للتّقريبِ لا يُجيزُ استئنافَ ﴿رُدَّتْ﴾؛ لأنّها خبرُ التّقريب، وهو يُفتقرُ إليه، كما يُفتقرُ إلى خبر (كان)، فلا يجوزُ الاقتصارُ على ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ دون ذِكْرِ ﴿رُدَّتْ﴾[5].

وفي جميع الاحتمالاتِ الإعرابيّةِ تأكيدٌ لردِّ البضاعةِ إليهم وتملُّكِهم لها، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أبناءَ يعقوبَ أرادوا بهذا الكلام أنْ يُطيِّبوا نفسَ أبيهم على الإذن لهم بالمعاودةِ وإرسالِ بنيامين معهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.
(2) باستثناء الأخفش، فهذا رأي البصريّين الّذين أوجبوا دخول (قد) على الفعل الماضي الواقع حالًا، لإفادة التّقريب إمّا ظاهرًا أو تقديرًا، أمّا الكوفيّون فقالوا: لا حاجة لنا لهذا التّقدير.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.

نُكتة تَكرار الفعلِ ﴿رُدَّتْ﴾:

كرّرَ البيانُ الإلهيُّ الفعل ﴿رُدَّتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ مرّتيْن، رغْمَ أنّ هذا الأمرَ - وهو فتحُ أمتعتِهم - كان بحضور يعقوبَ ورؤيتِه للبضاعة الّتي رُدّت، بدليلِ إشارتِهم بالقريب ﴿هَـٰذِهِۦ﴾؛ وذلك لأمرَيْن:

تحقيقُ ردِّ البضاعة، والإشارةُ إلى شدّةِ فرحِهم بإعادتِها

الأوّلُ: توكيدٌ وتحقيقٌ لردّ البضاعةِ؛ لأنّهم قد دفَعوها للمَلكِ وتسلَّموا الطّعامَ بدلًا عنها، ولذلك لم يقولوا: جاءتْنا؛ لأنّهم صدّقوا مقالةَ العزيز عندما قال: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ [يوسف: 60] كأنها أُخذت ثمّ ردَّها، كما يصنعُ الملوك، خصوصًا ملوك مصرَ[1].

الثّاني: إشارةٌ إلى شدّة فرحِهم بإعادتِها إليهم؛ لأنّهم كانوا في أشدّ الحاجةِ إليها.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿رُدَّتْ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

الإخفاءُ المفهومُ من كمالِ غفلتِهم عن فاعلِه، يُؤْذِنُ بكمالِ الإحسانِ المُفرِحِ لقلوبِهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالفعل ﴿رُدَّتْ﴾ مبنيًّا للمفعول في الموضعَيْن من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾؛ مراعاةً لغرَضِ السّامعِ؛ إذ لا غرَضَ للسّامعِ هنا في ذكْرِ الفاعل، بلِ التّعلّق بالمفعول لا غير، وهو ثمنُ الطّعامِ الّذي قد رُدّ إليهم من حيث لا يَدرون، ولذا يقول البقاعيّ: " لَمَّا كان المُفرِحُ مُطلَقَ الرَّدِّ، بُنِيَ قولُه ﴿رُدَّتْ﴾ للمفعولِ"[2]، وقد حرص القرآنُ الكريمُ بهذا على أن يظلَّ السّامعُ مرتبطًا بالحَدَثِ المُفرِحِ، وينحصرُ وعيُه فيه ولا يتوزّعُ في غيره.

وللإيذانِ كذلك بكمالِ الإحسانِ النّاشئِ عن كمالِ الإخفاءِ المفهومِ من كمالِ غفلتِهم عنه بحيث لم يشعُروا به ولا بفاعلِه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3840.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

دَلالةُ تَعدّي الفعلِ ﴿رُدَّتْ﴾:

ردُّ يوسفَ البضاعةَ إلى إخوتِه، كان تفضُّلًا منه وإحسانًا

الفعْلُ (ردّ) يتعدّى إلى المفعول الثّاني بـ (إلى) عند إرادة الإكرام وبـ (على) عند إرادة الإهانة[1]، والمقامُ في ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، و﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: مقامُ إكرام من يوسفَ لإخوته، بردِّ بضاعتِهم إليهم تفضُّلًا وإكرامًا وإحسانًا من حيث لا يَدرون، وهذا بحدّ ذاته من كمال الإحسانِ إليهم، بعدما مَنّ عليهم منَ المِنن العظامِ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمجرورِ للمُتكلّمين ﴿إِلَيْنَا﴾:

شمولُ إحسانِ يوسُفَ للجميعِ، تأكيدٌ على ما وصَفوه لأبيهم

في إسناد ردِّ البضاعةِ إليهم، في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فوائد منها:

الأوّلُ: تأكيدُ الإخوةِ لأبيهم على ما وصَفوه له من إحسانِ يوسفَ عليه السلام.

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ التّكريمَ والإحسانَ من يوسفَ عليه السلام شملَهم جميعًا، ولم يقصدْ بعضًا دونَ بعضٍ، بما يُؤْذِنُ أنّ غرَضَ يوسفَ هو ضمانُ رجوعِهم جميعًا مع أخيهم بِنيامين.

الثّالثُ: مراعاةُ سياقِ الكلام الّذي جاء على لسانِهم بصيغة ضميرِ جماعةِ المُتكلّمين ﴿أَبَانَا﴾ - ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾ - ﴿إِلَيْنَا﴾ - ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ - ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾:

الواوُ بين العطْفِ والاعتراضِ، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ تحتملُ وجهَيْن؛ **الوجه الأوّل:** أنْ تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه يحتملُ ثلاثةَ احتمالات:

أوّلًا: أنْ يكونَ المعطوفُ عليه جملةَ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، لأنّها في قوّة: هذا ثمنُ ما نحتاجُه منَ الميرة صارَ إلينا، ونميرُ به أهلنا؛ أيْ: نأتيهم بالميرةِ[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.

ثانيًا: أنْ يكونَ المعطوفُ عليه محذوفًا، والتّقديرُ: رُدَّتْ إلينا، فنستَظْهِرُ بها، ونَميرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملكِ[1]، أو رُدَّتْ إلينا، فنرجعُ بها إليه بأخينا، فيظهرُ له نصحُنا وصدقُنا، ونَميرُ أهلَنا[2].

ثالثًا: أنْ يكون جملةَ ﴿مَا نَبْغِي﴾، سواءٌ كان معنى ﴿مَا نَبْغِي﴾: ما نطلبُ، والتّقديرُ: كأنّهم قالوا: ما نَبغي منك في هذا الوجه شيئًا تصرفُنا به، ومع ذلك نميرُ أهلنا؛ أيْ: نجلبُ إليهم الطّعامَ[3]، أو كان معنى ﴿مَا نَبْغِي﴾: ما نتزيّدُ وما نكذبُ؛ أيْ: لا نَبغي فيما نقولُ، ونميرُ أهلنا، ونفعلُ كيتَ وكيتَ[4].

والوجه الثّاني: أنْ تكون اعتراضيّةً، بأن يكونَ الكلامُ كلامًا مبتدأً، والمعنى: وينبغي أنْ نميرَ أهلنا[5]. وهكذا تتغازرُ المعاني بتغازُرِ الوجوهِ مع التّعانقِ، والعبارةُ واحدةٌ، وهذا منَ الإيجاز والإعجازِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَنَمِيرُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ في قولِه تعالى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إلى أنّ إرسالَ أخيهم معهم سيكونُ سببًا في تَكرار مجيئِهم بالميرةِ إلى أهلِهم وتجدُّدِه؛ أيْ: نأتي لهم بالميرةِ بالرّجوعِ مرّةً بعد مرّةٍ، كما أنّ في هذا التّعبيرِ تصويرًا لذلك، بما يُحقّقُ استعطافَ قلبِ أبيهم، وترغيبَه وإغراءَه لإرسال أخيهم معهم، تخفيفًا منَ الجوع الّذي حلّ بأهلِهم في ظلِ قحْطٍ عمَّ البلادَ.

تَكرارُ جلْبِهم للميرةِ، و إغراء أبيهم لاستصحابِ أخيهم

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ إلى المُتكلّمين ﴿وَنَمِيرُ﴾:

في إسنادِ الفعْلِ ﴿وَنَمِيرُ﴾ إلى ضمير الجماعةِ، والقائلُ هم أبناءُ

في الجمْعِ تصويرٌ لجلْبِ كمّيةٍ وفيرةٍ منَ الميرةِ، إغراءً لأبيهم بإرسالِ أخيهم معهم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/298، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383، وضعّف هذا القولَ أبو حيّان، وقال: "وهذا كلّه تَحْمِيلٌ للفظ القرآن مَا يَبْعُدُ تَحْمِيلُهُ، وفيه مخالفةُ الظَّاهِرِ لغيرِ دَلِيلٍ". ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.

يعقوبَ إشارةٌ إلى توافُقِ كلمتِهم وعزمِهم جميعًا للذّهابِ إلى جلْبِ الميرةِ بعد أنْ وَجدوا بضاعتَهم في متاعِهم، وإغراءٌ بتصويرِ كمّيةٍ وفيرةٍ منَ الميرة في حال ذهابِهم جميعًا ممّا يدفعُ أباهم إلى إرسالِ أخيهم معهم ليَستَطيعوا جلْب الميرة الّتي هم في أمسّ الحاجةِ إليها في ظلّ ظروفِ القحْطِ والجوعِ الّتي يمرّون بها.

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضافًا في: ﴿أَهْلَنَا﴾:

أشار البيانُ الإلهيُّ من خلالِ تعريف المفعولِ به بالإضافةِ إلى ضمير المُتكلّمين في قولِه تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إلى إغراءِ أبيهم يعقوبَ بأمرَيْن:

في الإضافةِ إشعارٌ لأبيهم بتحمُّلِهم مسؤوليّةَ تأمينِ الطّعام لأهلِهم، رحمةً وشفقةً بهم

الأوّلُ: بتحمُّلِهم مسؤوليّةَ تأمينِ الطّعامِ لأهلِهم الّذي لن يتمَّ تأمينُه إذا لم يوافقْ على ذهاب أخيهم معهم.

الثّاني: بالشّفقةِ والرّحمةِ على جميع أهلِهم منَ النّساء والأطفالِ، الّذين لا يَصبرون على الجوع مع وجودِ القحْطِ الشّديدِ الّذي عمّ بلدَهم والبلادَ المجاورةَ.

دَلالةُ الواوِ في قولِه ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾:

في العطْفِ وعدٌ بحفْظِ أخيهم تطمينًا لخاطرِ أبيهم

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْفَظُ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ جملةَ ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ على جملةِ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، والعطفُ طلبٌ ثانٍ بعد الطّلبِ الأوّل ﴿وَنَمِيرُ﴾؛ ومناسبتُه هي أنَّ المَيْرَ يقتضي ارتحالًا للجلْبِ، وهذا يقتضي محافظتَهم على أخيهم؛ لأنّ الميرة لا تكون إلّا به، بما يحقّقُ التّطْمينَ لخاطرِ أبيهم[1]، وإغراءه بالتّسليم لهذا الأمر الّذي لا بدَّ منه، ففيه جلبُ الخيرِ لهم، وهم في وجه هذا العُسرِ والضّيق![2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿وَنَحْفَظُ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل المضارعِ ﴿وَنَحْفَظُ﴾ في قولِه: ﴿وَنَحْفَظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/18.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

﴿أَخَانَا﴾؛ للإشارة إلى أنّ حفظَهم لأخيهم سيكونُ مستمرًّا مُتجدِّدًا في جميع مراحلِ رحلتِهم للمجيء بالمِيرة، ولن يقطَعوا حفظَهم عنه في طريق الذّهابِ، وأثناءَ المقامِ بمصر، وفي طريق الرّجوعِ، كما أنّ فيه تصويرًا بمشهدِ استمرارِ حفْظِهم لأخيهم ممّا يبعثُ الطّمأنينةَ في قلبِ يعقوبَ فيوافقُ على طلبِهم.

الوعدُ المستمرُّ المُتجدِّدُ بحفْظِ أخيهم صورةٌ تبعثُ الطُّمأنينةَ في قلبِ أبيهم

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مضافًا في ﴿أَخَانَا﴾:

أشارَ البيانُ الإلهيُّ من خلالِ تعريفِ المفعول به بالإضافة إلى ضميرِ المُتكلّمين (نا)، في قوله: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، إلى قصْدِ الإخوةِ أن يُذَكّروا أباهم يعقوبَ ﷺ بعلاقةِ الأُخوّة بينهم وبين أخيهم بِنيامين الّتي تستلزمُ منهم جميعًا أنْ يُحافظوا عليه، ويَعتنوا به، وهذا استعطافٌ لأبيهم كي يُرسلَ معهم أخاهم.

الإشارةُ إلى علاقةِ الأُخوّة بينهم وبين أخيهم استعطافٌ لأبيهم

سرُّ تَكرارهم حفْظَ أخيهم دون الأَخْذ:

كرَّروا وعْدَهم لأبيهم بحفْظِ أخيهم فقالوا: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مع أنّه سبقَ منهم الوعدُ بحفْظِه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]؛ مُبالَغةً في الحضِّ على إرْساله[1]، و"تأكيدًا للوعْدِ بحفظِه، وبيانًا لعدمِ ضررٍ في سفره"[2]. وعبّروا بالحفْظِ دونَ الأخذِ؛ أيْ لم يقولوا (ونأخذ أخانا)؛ اختصارًا واكتفاءً بالمقصود وهو حفْظُه؛ لأنّ امتناعَ أبيهم من إرساله معهم، هو عدمُ ثقتِه بحفْظِهم له، أو"كأنّ أخذَه أمرٌ مفروغٌ منه، لا مراجعةَ لأبيهم فيه، فقد سلّمَ به لهم حُكمًا إن لم يكن قد سلّمَ به واقعًا"[3].

المبالغةُ في الحضِّ، وتأكيدُ الوعْدِ بما يُثلجُ صدْرَ أبيهم

دَلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَنَزْدَادُ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ عاطفةٌ؛ عطفت هذه الجملةَ

حِرصُهم على زيادةِ المِيرة، يَستلزمُ محافظَتَهم على أخيهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

على الّتي قبلها ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، والمعنى: بحفْظنا لأخينا نزدادُ حملَ بعيرٍ يُكالُ لأخينا، وفي هذا العطفِ دلالةٌ على شدّة حرصِهم على سلامة أخيهم؛ لأنّ في سلامتِه فائدةً لهم بازديادِهم كيلَ بعير؛ لأنّ يوسفَ ﷺ كان لا يُعطي أحدًا أكثرَ من حملِ بعيرٍ منَ الطّعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمْلَ بعيرٍ، وبه تظهرُ المناسبةُ بين هذه الجملةِ والتي قبلَها[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَنَزْدَادُ﴾:

صـورةُ تجـدُّدِ ازديـادِ مِيرتِهم، ترغيـبٌ لأبيهم وإغـراءٌ بتحقيقِ مُرادِهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بصيغة المضارع؛ الّذي يدلُّ على التّجدُّدِ والاستمرارِ، والمعنى: أنّ كلّ مرّةٍ سيذهبُ بنيامين معنا للميرةِ سنزدادُ كيل بعيرٍ، وفيه كذلك تصويرٌ لجلْبِهم كيلًا زائدًا على ما اكتالوا في المرّة الماضيةِ، ترغيبًا لأبيهم وإغراءً له بالتّسليمِ لهذا الأمرِ الّذي لا بدَّ منه، وهم يعيشون العُسرَ والضّيق[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضافًا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾:

فـي الإضـافـةِ إشارةٌ إلى شِدّةِ عَـوَزِهـم، فكيلُ البعيرِ عندَهم شيءٌ ثمينٌ

إضافةُ ﴿كَيْلَ﴾ إلى ﴿بَعِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ إضافةٌ بيانيّةٌ؛ أيْ عبّرَ بالمفعول به مضافًا ليُبيّنَ أنّ نصيبَ بنيامين منَ الميرةِ إذا ذهبَ معهم مقدارُه كيلُ بعيرٍ؛ لأنّ يوسفَ قسّطَ الطّعامَ بين النّاس فلا يُعطى الواحدَ أكثرَ من حِمْلِ بعيرٍ؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ كيلَ بعيرٍ شيءٌ ثمينٌ وذو قيمةٍ كبيرةٍ بالنّسبةِ لهم وهم في حالةِ المجاعةِ والقحْطِ.

نكتة التّعبيرِ بالجُمَلِ الخمْسِ متتابعةً:

أولـى الأمـور بالنَّجاحِ، التَّكرارُ والإلحاحُ

جاءت هذه الجُملُ الخمسُ: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ متتابعةً ومُرتَّبةً ترتيبًا بديعًا؛ لأنّ بعضَها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

مُتولِّدٌ من بعضٍ[1]، وتوالي الواوات بين: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ و﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ و﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يجمعُ تلك المتعاطفاتِ، ويقرنُ بعضَها إلى بعضٍ بما يُمثّلُ أروعَ ما يمكنُ أنْ يبلُغَه فنُّ العرْضِ لمجموعةٍ من فريدِ اللآلئِ وكريمِ الجواهرِ، تُحرّكُها يدُ صَناعٍ، فتجيءُ بها واحدةً إثرَ أخرى، حتّى لكأنّها أنغامٌ موسيقيّةٌ، تؤلّفُ لحنًا! وفي اختيارِ حرفِ (الواو) من بين حروف العطْفِ، وفي تَكرارِه، دونَ مغايَرةٍ في هذا ما يزاوجُ بين هذه المتعاطفاتِ، ويُؤاخي بينَها، بحيث تبدو مُتجمّعةً، وهي متفرّقةٌ لِما في حرف (الواو) من رخاوةٍ ولينٍ، حيث تصبحُ هذه المُتعاطفاتُ على هذا النّسقِ، كيانًا واحدًا لا يمكنُ الفصلُ بين أجزائه، إنّها أمرٌ واحدٌ وطلبٌ واحدٌ![2]، وأَولى الأمور بالنَّجاح التَّكرارُ والإلحاحُ، فلم يَبْرحوا يُجادلون أباهم جدالَ طَلَبٍ، وهو يجادلُهم جدالَ إباءٍ وامتناعٍ، حتَّى نزل عند رغبتِهم مُشترطًا عليهم لإرسالِه معهم أن يُعاهِدوه على إرجاعه له سالمًا، ففعلوا[3]، "وفي هذه الجُملِ المُتعدّدةِ الّتي حكاها القرآنُ عنهم تحريضٌ واضحٌ منهم لأبيهم على أنْ يسمحَ لهم باصطحابِ بِنيامين معهم في رحلتهم القادمةِ إلى مصرَ"[4].

موقعُ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ودَلالتُه:

استئنافٌ بيانيٌّ وقَعَ تَعْليلًا لِما سَبَق، كأنَّه قيل: أيُّ حاجةٍ إلى الازْديادِ؟ فقيل: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، سواءٌ كان اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعودُ إلى الزّاد الّذي أحْضروه من مصر، فالمعنى: ذلك الطّعامُ الّذي أعطانا إيّاه عزيزُ مصرَ طعامٌ يسيرٌ، لا يكفينا إلّا لمدّة قليلةٍ منَ الزّمان، ويجبُ أنْ نعودَ إلى مصرَ لنأتيَ بطعامٍ آخرَ؛ أيْ: ذلك مَكيلٌ قليلٌ لا يقومُ بأَوْدنا.

استئنافٌ يُعلّل طلبَهم، وحاجتَهم إلى الازديادِ منَ الميرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(3) الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف ﷺ في القرآن، ص: 131.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.

أو كان اسْمُ الإشارة يعودُ إلى قوله ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أيْ: نصيبُ بنيامين، فالمعنى: ذلك الكَيلُ الزَّائدُ شيءٌ قليلٌ لا يُضَايقُنا فيه المَلِكُ، أو سَهْلٌ عليه لا يَتَعاظَمُه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في الإشارةِ إيماءٌ إلى قِلّةِ الطّعام الّذي أتَوا به، أو بُعْدِ زمانِ أخْذِه

اختارَ البيانُ القرآنيُّ للتّعبيرِ عنِ المُسنَدِ إليه اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي يُستخدمُ للبعيد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ والطّعامُ الّذي في متاعِهم قريبٌ منهم؛ أيْ لم يَقُل: هذا كيلٌ يسيرٌ؛ لِما في ذلك منَ الدّلالة على زيادة قلّته، هذا إذا كانتِ الإشارةُ إلى الأحمال الّتي أتَوا بها، وأمّا إذا كانتِ الإشارةُ إلى كيلِ بعيرٍ الّذي سيأخذونَه من يوسفَ عندما يَرجعون إليه بأخيهم فاستخدامُ اسْمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو الأنسبُ لبُعْدِ الكيل عنهم وقْتَ حديثِهم.

الغرَضُ من تنكيرِ المُسنَدِ ﴿كَيْلٌ﴾:

في التّنكير إرادةُ الوَحدة وإفادةُ التّقليلِ، للإفصاحِ عنِ المُرادِ

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿كَيْلٌ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ لإرادة الوَحدةِ، ولإفادة معنى التّقليلِ، فإذا كانت الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فالتّنكير دلّ على الوَحدة وأنّه كيلٌ واحدٌ، وهو كيلٌ سهلٌ ومُتيسّرٌ على مَن يكيلُ لنا، وأمّا إنْ كانت الإشارةُ إلى الأحمال فالتّنكيرُ يفيدُ التّقليلَ، والمعنى أنّها قليلةٌ لا تَكفيهم، حتّى يُضافَ إليها كيلُ بعير.

سِرُّ قيْدِ المُسنَدِ ﴿كَيْلٌ﴾، بالصّفة ﴿يَسِيرٌ﴾:

في وصفِ الكيل باليسير، إفادةٌ بأنّه سهلٌ مُتيسّرٌ وسريعٌ وقليلٌ

وصفَ البيانُ الإلهيُّ الكيلَ بأنّه يسيرٌ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ لإفادة معانٍ تتعلّقُ بالمُراد منَ الكيلِ المُشار إليه:

فإنْ كانت الإشارةُ إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ فالمعنى هو: إمّا أنّه كيلٌ سهلٌ ومُتيسّرٌ على مَن يكيلُ لنا؛ أيْ: سهل الحصول عليه؛ لأنّ العزيزَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

أوصى بإحضاره، أو هو حملُ بعيرٍ لا عسرَ فيه على عزيزِ مصرَ الجوادِ المُحسنِ[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المُدّثر: 9 - 10]، أو أنّ ذلك المَكيلَ الزّائدَ قليلٌ لا يكثرُ عليه لسخائِه ولا يَشقُّ عليه، وإنْ كان يعلمُ أنّ كلَّ ما نأخذُه لبيتٍ واحدٍ[2]، أو كيلٌ يسير، يعني: سريعٌ، لا حبسَ فيه إنْ أرسلته معنا عجَّل الملكُ لنا الكيلَ[3]؛ أيْ: قصير المدّة ليس سبيلُ مثْلِه أنْ تطولَ مدّتُه بسببِ الحبْسِ والتّأخير[4]، فكأنّهم بذلك آنَسوه على هذا بقُربِ الأوبة[5]. وإنْ كانت الإشارةُ إلى الأحمالِ، فالمعنى أنّها قليلةٌ لا تَكفيهم حتّى يُضاف إليها كيلُ بعير[6]؛ أيْ: ذلك الّذي يُدفع إلينا دونَ أخينا شيءٌ قليلٌ لا يَكفينا، فابعثْ أخانا معنا حتّى نتبدّلَ تلكَ القلّةَ بالكثرة[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤﴾ [الأحزاب: 14]، وهذا كلُّه إذا كان قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ حكايةً لكلامِهم، وأمّا إذا كان من كلامِ يعقوبَ فوصْفُ الكيلِ باليسيرِ من تمام الكلامِ وتحسينِه؛ أيْ: إنّ هذا يسيرٌ في مقابلة أخْذِ أخيهم ما يعدلُ هذا[8]؛ أيْ: "حِملُ بعيرٍ واحدٍ شيءٌ يسيرٌ لا يُخاطَرُ لمِثْلِه بالولدِ"[9].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يسير) و(قليل):

بين لفظَيِ القليلِ واليسيرِ تقاربٌ دلاليٌّ، إذ يُعبّرُ عنِ الشّيءِ القليلِ باليسير، وعن الشّيءِ اليسيرِ بالقليل؛ وذلك لأنّ الشّيءَ إذا

الشّيءُ إذا قلّت كمّيتُه، أو قلَّ عددُهُ، سهُلَ عدُّه وحَملُه، فكانَ يسيرًا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/201.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261.
(6) ابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.
(9) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

قلّت كمّيته، أو قلّ عددُه سهُلَ حملُه وعطاؤه وعدُّه، إلّا أنّنا إذا رجعنا إلى الأصل اللّغويِّ لكلٍّ منهما وجدْنا فروقًا بين اللّفظيْن، وبيانُ ذلك:

أوّلًا: أصلُ (يسير) يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، واليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ[1]، واليَسَرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسيرُ: الهَيِّن أوِ القَليلُ[2].

ثانيًا: وأصلُ (قليل) يدلُّ على نَزارَةِ الشّيء[3]، والقِلَّةُ: ضِدُّ الكَثْرَةِ، والقليلُ يُقال في قلّةِ العددِ، وفي دِقَّةِ الجُثَّةِ والنَّحافَةِ، والإقْلالُ: الافْتِقارُ[4].

فالفرقُ بين (اليسيرِ) و(القليلِ) هو أنّ اليسيرَ في أصلهِ يدلُّ على الخفّة والسّهولةِ واللّين، وضدُّه: العسيرُ، بينما القليلُ في أصله يدلُّ على نزارةِ الشّيء وقلّة عددِه، وضدُّه: الكثرةُ.

وقد فرّق العسكريُّ بينَهما فذكرَ أنّ القلَّة تَقْتَضِي نُقْصَان العدَد، يُقَال: قومٌ قَليلٌ وقليلون، ومن القُرْآن: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشّعراء: 54] يُرِيد أَنّ عَددهمْ ينقصُ عن عدَّةِ غَيرهم، وهي نقيضُ الكَثْرَة، وليستِ الكَثْرَةُ إلّا زيادةَ العدَد، وهي في غيره اسْتِعَارَةٌ وتشبيهٌ، بينما اليسيرُ منَ الأشياء: ما يَتَيَسَّر تَحْصيلُه، أَو طلبهُ، ولا يقتضي ما يَقْتَضيهِ الْقَلِيل من نُقْصان العدَد، أَلا ترى أَنّه يُقال: عددٌ قَليل، ولا يُقال: عددٌ يسير، ولكن يُقال مالٌ يسير؛ لأَنّ جمعَ مثلِه يَتَيَسَّرُ، فَإِن اسْتُعْمل اليَسيرُ في مَوضِع القَليل فقد يجْري اسْمُ الشَّيْء على غَيره إِذا قرُبَ منه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (يسر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلّ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قلل).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 252.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»